الفصل الخامس

قال الشيخ :

ـ قلت لـك إنني رأيت في الرؤ يـا الامـام الغـزالي خـارجـاً من كـوة اسم العليم . هـذا يعني أن الصفة تقتضي (تستـوجب) فعلاً لكي تـظهر . إذ كـل صفـة من غير فعـل صفة مضمـرة ، وهي عدم مـا لم تظهـر . خـذ مثـلاً صفـة الشجاعة إذا لم يكن هناك من يظهرها كوجود الشجاع فكيف نعرفها ؟

قلت : هذا صحيح يا سيدي .

ـ وقلنا الصفات لا وجود لها بذاتها بل هي موجـودة بالنـور أو بالـواحد ، وبيّنا ذلك وشـرحناه . أحب أن ألفت نـظرك إلى أن الصوفيـة فرقـوا بين كلمتي الوجود والموجود ، فـالوجـود عندهم لله ، وهـو الأساسي أو الضـروري ، أو ما يسمى بلغة الفلسفة بواجب الوجود . . أما الموجود فهو عندهم لغير الله بدءاً من النور المحمدي ومـروراً بالأسـماء التي هي المثل أو الصفـات ، والموجـود عندهم وبمصطلحهم ما وُجد بغيره ، أو قل هو الـوجود الإضـافي أو الفقير ، أو مـا يقال في الفلسفة بوجود الإمكان . والموجود مفعـول لا فاعـل ، ولئن فعل فبمـدد من الوجود الأصلي ، فهو فقير في ذاته غني بالوجـود الأصيل . ومـا قلناه ينـطبق على الأسـماء فهي موجـودة ، وقلنا إنهـا مشعـة عن النور ، عن مـركـز النـور ، فهي الانتشـار ، ولـذلـك فهي كثـرة ، وبيّنـا كيف تكـون الكثـرة من الـواحـد بقـوة

الإشعاع . . وإذا ما لجأنا إلى التشبيه كان وجود الأسماء أشبه بمخروط رأسه الله ، أو ما مثلناه بالشمس ، وجسمه الأشعة المنتشرة وقلنا هي النور المحمدي . . أما قاعدة المخروط فهي دائرة بالطبع ، وهذه الدائرة نهاية لشكل نوراني شعشعاني . فالدائرة التي مثلت الكثير أصلها نقطة ، فهي من جهة وحدة لصلتها بالمركز ، وهي من جهة كثرة لتكوينها الدائرة النورانية الأسمائية ، فهل وضح لك الأمر ؟

هززت رأسي بالإيجاب فتابع الشيخ قائلاً :

ـ وقلنا الأسماء اقتضت الظهور لفض مضمونها . وقلنا إن الغزالي يمثل الاسم العليم ، والكريم يمثل اسم الكريم إلى آخر الأسماء . . هذه الأسماء سماها ابن عربي أسماء تشبيه لأن لها من الموجودات مشابهة ، وهناك أسماء سماها أسماء تنزيه لأنه لا مشابهة لها من قبل الموجودات كالعلي والمحيي مثلاً .

ومخروط الأسماء النوراني والمنتهي بدائرة الأسماء يستمر في امتداده دخولاً عالم العناصر . وقلنا إن عالم العناصر أصله نور وقوامه النور وفسرنا ذلك برد عالم المادة إلى ذر سديمي . ولقد انتهى العلم إلى حد أنه لم يبق من العالم المادي سوى كهارب تدور حول نواة ، أي أنه جعل العالم المادي كله أمواج كهربائية أو كهرطيسية فيهاالسالب وفيها الموجب . وحاروا في الكهرباء حتى جعلوها عنصراً لا يمكن تجزئته ، والكهرباء ما دامت خفية ، وهي قوة ، فهي ذر ، وبتكثف هذا الذر وفق معادلات رياضية ظهرت العناصر ، ومن العناصر تكون العالم المادي . والآية القائلة : ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾ قد أثبت العلم تفسيرها الآن ، فكل ما هو مادي صلب يمر مر السحاب لحركة الكهارب المشكلة للعناصر . إذن العلم الحديث ، وخاصة في مجال الذرة والفيزياء ، ضيّق الهوة بين النور العقلي والنور المحسوس . . والصوفية ردموا هذه الهوة حين نسفوا العالم الظاهري كله وقالوا إنما هو نور ظاهر وفسرت ذلك بتكثف النور .

وما دمنا انتهينا إلى أن الأسماء تمثل مساحة دائرة لها شكل مخروطي كله

نور فكذلك فإن ظهور هذه الأسماء إلى دائرة الفعل مد هذا المخروط حتى شمل العالم المادي أيضاً . فنحن الآن أمام مخروط نصفه نور ونصفه الآخر مادة ، ودائرة الأسماء النورانية وتتضمن الكليات امتدت حتى شكلت دائرة ظاهريةٌ محسوسة تضمنت جزئيات العالم المادي . وإذا جمعنا الأسماء إلى بعضها بعضاً ، ووضعنا بجانب كل اسم ظهوره الفعلي كوجود شخص الشجاع إلى جانب اسمه نجد أن الدائرة الجديدة هي الأسماء المتعينة أو المشخصات .

قال هذا والتفت ومضى إلى النافذة وألقى عبرها نظرة إلى الخارج . ترى هل عاد إلى النظر إلى الشمس وأشعتها من جديد ، وما الذي سيضربه مثلاً على ذلك ؟ لقد عودني الشيخ على المفاجآت فأية مفاجأة أعدها الآن ؟

والتفت وأومأ إلي فاقتربت فأشار إلى النافذة وقال : انظر . . فنظرت . ولم يشر الشيخ إلى الشمس ولا إلى أشعتها بل سألني :

ـ ماذا في الشارع ؟

ـ قلت مبتسماً :

ـ بشر .

ـ بل أشباح .

ـ نعم ؟

وارتسمت الدهشة بأبلغ معانيها على وجهي وتابع هو :

ـ أشباح عالم الإمكان ، هكذا وصف ابن عربي البشر . لقد اتفقنا على أن الدائرة الجديدة هي الأسماء المتعينة .

ـ أجل .

ـ إذن هؤلاء هم الأسماء المتعينة ، هم الكليات المحسوسة إن صح القول أو الكليات المنظورة أو الأسماء الظاهرة . التسميات كثيرة والمدلول واحد . لم نعد نحن الآن في مجال المعقول بل في ميدان المحسوس ، ومع هذا فلقد أثبتنا أن ميدان المحسوس ظهور للمعقول ، ظهور للأسماء . . هؤلاء جميعاً أجسام جزئية ومجموعهم هو الجسم الكلي ، مفهوم ؟

ـ ولكن الجسم الكلي تجريد يا سيدي ، فكيف . .

قاطعني قائلاً وهو يهز رأسه :

ـ على رسلك ولا تعجل علي ، وإليك هذه الرؤيا التي رأيتها . رأيت فتياناً في ملعب يتصارعون . كل زوجين منهم يتصارعان مع بعضهما بعضاً . وبدا أن الجميع في مباراة ، وكان للمباراة حكم ، وقد بدأت منذ زمن ، ثم نفخ الحكم في صفارته فانتهت المباراة . . وإذا تمثال كبير داخل دائرة يبرز في الملعب وهو يتحرك مع الدائرة في جميع الاتجاهات . . ثم رأيت لاعباً واحداً أمامه تل من السترات الرياضية يرتدي واحدة منها بعد أخرى يضرب بكتفه تل السترات ليقوى صدره . . ثم رأيت شخصين اسم أحدهما أكرم والثاني فؤاد ، وقال أكرم لي لو أنهم أقاموا المباراة عند تلك الشجرة ، فاللعب في الطبيعة أجمل ، فقلت أنا ألعب في بيتي إذ المواصلات بين البستان وبيتي طويلة ، وانتبهت . . عاجلته قبل أن يطلب إلي أن أقوم بمحاولة للتعبير :

ـ وما تعبير ما رأيت يا سيدي ؟

أجاب :

ـ الأمر واضح . الفتيان المعقولات ، والمعقولات الملائكة إذ أن الله أنكر على من سمى الملائكة تسمية الأنثى . وكان الفتيان أزواجاً كل زوجين يتصارعان . إذن المعقولات أو الأسماء هي التي تتصارع . ووجود الفتيان في ملعب ، والملعب مكان ، واللعب الذي يشير إلى الحركة ، وبدء المباراة ووقتها اللذين يشيران إلى الزمان هذا كله يدل على أننا قد دخلنا عالم المقولات وانتقلنا من عالم الغيب إلى عالم الحس والشهادة . . وفي عالم الحس لا يوجد إلا الصراع ، صراع الاضداد ، صراع المسميات مع بعضها بعضاً . . صراع البشر والوحوش والحشرات والأسماك . كل ما في الطبيعة صراع . وأصل هذا الصراع صراع الأسماء المتضادة إخراجاً لما فيها من قوى ، إذ لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود . فالكيف لا يظهر إلا بوجود نقيضه ، ولولا النقيض لظل الكيف في حكم العدم .

أما ظهور التمثال الكبير فإشارة إلى أن المعقولات أصلها عقل كلي واحد مشع عن العقل الأحد الصمد ، ولذلك اختفى الرياضيون ، وبرز التمثال وهو يتحرك في جميع الاتجاهات . وكنا أشرنا إلى النور المشع عن الشمس والمنتشر في جميع الاتجاهات .

وظهور اللاعب الوحيد الذي كان أمامه كل من السترات يلبس سترة بعد أخرى ويضرب التل بكتفه ليقوي صدره فهذا إشارة أيضاً إلى الواحد الذي هو أصل الكليات ، والذي تفرعت عنه الكليات ، والذي لبس الكليات المشار إليها بالسترات ، إذ السترة ستارة والستارة صفة ، وذلك ليقوي صدره أي صدوره أي ظهوره .

وإقبال التمثال في دائرة في جميع الاتجاهات بشكل كرة ، والمكون الذري له شكل كروي ، يعني أن عالم العناصر كله يحركه هذا النور الفعال ويخرج ما في بطنان الغيب من كليات على مسرح الشهادة . ولقد سبق أن وصفنا رؤ يا ظهر فيها الممثل نور الشريف الذي يضع على وجهه القناع بعد القناع ليمثل كل الأدوار .

ولقائي بالشخصين أكرم وفؤاد إشارة إلى مقام الكشف للعارف الذي يشهد فيه أن لا فاعل إلا الله ولا وجود لسواه ، إذ أن أكرم هو اسمه الأكرم . وفؤاد الروح ، وأنا آدم الذي علمني الله الأسماء كلها من قبل أن تفض مكنونات الأسماء . . وقول أكرم أن لو جرت المباراة قرب الشجرة ففيه إشارة إلى ما جاء في كتاب الله عن الشجرة التي حذر الله آدم وزوجه من الاقتراب منها . والصوفيون قالوا إن الله قد ينهي عن شيء ويريد خلافه . . والشجرة شجرة المعرفة ولما أكل آدم وزوجه منها بانت سوءتهما ، أي عورتهما . وآدم مجموع الأسماء الآلهية أو ظهورها . فهو أبو البشر ، وهو واحد من حيث النوع في كثير من حيث الأفراد ، وحواء نفسه ، إذ خلقت من ضلعه ، والضلع في الصدر ، أي خلقت حواء من صدره ، أي صدرت من صدره ، وما يصدر عن الصدر إنما هو صدور مقتضيات الأسماء المتضادة، ولهذا كانت حواء نفس آدم تميل إلى

الشر وطغيان الشهوة والحواس ، ومن الأسماء مالها معين على هذا . إذن لقد اكتشف آدم عند أكله من الشجرة حقيقة المعرفة المتمثلة في انكشاف العورة ، وعورة آدم فاعلة وعورة حواء منفعلة وآدم واحد هو ظهور الأحد . إذن عند فض خاتم حواء النفس لم يجد آدم في الكون المتكثر إلا واحداً في كثير وكثيراً في واحد . فالواحد أصل المعقولات ، والمعقولات أصل التعينات ، والكثير أبعاض لواحد ظهر في جسم كلي فيه الفاعل والمنفعل. وهكذا عرف آدم حقيقة وجود الله ، وإن لا موجود سواه ، وأنه هو الفاعل والمنفعل . والآية أشارت إلى هذا بقوله تعالى مخاطباً آدم وحواء : ﴿ اهبطوا منها بعضكم لبعض عدو ﴾ ، ولقد وُجه الخطاب للجمع مع آدم وحواء مثنى ، وقلنا إن حواء آدم نفسه . . إذن لقد خرجت الكثرة من الواحد إلى أرض البدن ، والأرض واحدة عندما عرف الواحد حقيقة الواحد .